ResearchGate

See discussions, stats, and author profiles for this publication at: https://www.researchgate.net/publication/344332854

دلالة الجذر (أ م ن) في القرآن الكريم

Article · April 2001

CITATIONS
0

READS
61

1 author:

محمد نور الدين المنجد
Sultan Qaboos University
13 PUBLICATIONS **0** CITATIONS

SEE PROFILE

All content following this page was uploaded by محمد نور الدين المنجد on 21 September 2020.

The user has requested enhancement of the downloaded file.

دلالة الجذر [أ م ن] في القرآن الكريم

الأستاذ/ محمد نور الدين المنجد
كلية الآداب والعلوم
جامعة الشارقة
الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

لعله من فضول القول أن نذكر تميّز العربية بظاهرة الاشتقاق، وانتساب مفرداتها المختلفة إلى جذورٍ لغوية أحصتها المعاجم العربية - ولا سيّما معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي - يجمع كلّ جذرٍ منها طائفة من الألفاظ، تبدو لأول وهلة متقاربة في مبانيها، متباينة في معانيها، ولكن النظر والتدقيق يهدي إلى أنّ كلّ طائفة من الألفاظ التي يجمعها جذرٌ واحد لا تكاد تغادر معنى عامًا يدلّ عليه ذلك الجذر، بل إنه يضم شتاتها، ويوفّق بين معانيها، ويعمّق التواصل فيما بينها، فيشدّ بعضها أزر بعض، حتى لتكاد تستدل من أحدها على باقيها.

وقد تفرّد ابن فارس بين المعجميين في انتهاجه هذه السبيل في مفردات اللغة، فكان يرد مفردات كلّ مادة من مواد اللغة إلى أصل معنوي واحد، أو أكثر، يجمع تلك المتباينات تحت ظلّه، يقول ابن فارس في مقدمة معجمه مقاييس اللغة: «إنّ للغة العرب مقاييس صحيحة، وأصولاً تتفرّع منها فروع، وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا، ولم يعربوا في شيءٍ من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، ولا أصل من تلك الأصول، والذي أومأنا إليه باب من العلم جليل، وله خطرٌ عظيم، وقد صدرنا كلّ فصلٍ بأصله الذي يتفرّع منه مسائله، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل، ويكون المجيب عمّا يسأل عنه مجيبًا عن الباب المبسوط بأوجز لفظٍ وأقربه»(١). وقد انفرد ابن فارس من بين اللغويين بهذا التأليف، لم يسبقه أحد، ولم يخلفه أحد فيما نعلم.

ولنا مع هذه الظاهرة اللغوية وقفة تأمّل في كتاب الله، نستجلي بعضًا من جوانبها، ونقلب النظر فيها من خلال الجذر اللغوي (أ م ن)، ودلالاته المختلفة في القرآن الكريم.

وردّ الجذر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، تدل في مجملها على الأمن، والأمنة، والإيمان، والأمانة، وتقليب النظر في هذه المفردات - على طريقة ابن فارس - يهدي إلى معنى لطيف متصل بين هذه الألفاظ، تتمحور حوله، وتدور في فلكه كل الألفاظ الأخرى المشتقة من الجذر نفسه، ألا وهو الطمأنينة وسكون القلب.

يقول ابن فارس في معجمه: «الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر التصديق، والمعنيان كما قلنا متدانيان»[٢]، ولئن رآهما ابن فارس معنيين متدانيين، فإنّنا نراهما أصلاً واحدًا هو سكون القلب، أو بعبارةٍ أخرى الطمأنينة ليس غير؛ لأنَّ التصديق بالشيء لا يحصل إلاّ بسكون القلب إليه، والطّمأنينة به أو عليه، ثمّ تتفرّع منها دلالاتٍ أخرى تحصل بحصول الأصل.

وربّ معترض على هذا التوفيق بين الأصلين اللذين ذكرهما ابن فارس يستنتج أنَّ سيّدنا إبراهيم، عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسّلام، لم يكن مطمئنًّا، وإذًا فهو غير مصدّق، أو غير مؤمنٍ بقدرة الله على إحياء الموتى؛ ولذلك سأل الله أن يُريه كيف يحيي الموتى في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾[٣]، وظاهر الآية يدلّ على أنَّ الإيمان؛ أي التّصديق، غير الاطمئنان، فكيف يتأتّى الجمع بين التّصديق، والطّمأنينة على أصلٍ واحد؟

وللردّ على هذا الاعتراض نذكر تأويل هذه الآية كما ورد في بعض كتب التفسير، فممّا قيل في تأويل الآية: أنَّ سؤال إبراهيم عليه السلام كان «عن كيفية الإحياء، ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها... فإن قلت: إذا كان السؤال مصروفًا إلى الكيفيّة... فما موقع قوله تعالى: ﴿**أو لم تؤمن**﴾ قلت: ... هذه الصيغة تستعمل ظاهرًا في السؤال عن الكيفية كما مرّ، وقد تستعمل في الإعجاز، ... فلمّا كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأنَّ إبراهيم مُبرّأ منه، أراد بقوله: ﴿**أو لم تؤمن**﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله: بلى آمنت: ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي... بعبارة يفهمها كلّ من يسمعها فهمًا لا يلحقه فيه شكّ، فإن قلت: فما موقع قول إبراهيم: ﴿**ولكن ليطمئن قلبي**﴾؟ ... قلت: معناه ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة: لأنّي إذا شاهدتهما سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيّلة، وتعيّنت عندي بالتصوير المشاهد»[٤]، ويقول القرطبي: «... أي سألتك: ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانًا والمعلوم عيانًا... وطمأنينة القلب أن يسكن فكره في الشيء المعتقَد. والفكر في صورة الإحياء غير محظور، كما لنا نحن اليوم أن نفكّر فيها: إذ هي فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين فيذهب فكره في صورة الإحياء... وقال السدّي وابن جبير أيضًا: أو لم تؤمن بأنّك خليلي؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي بالخلّة. وقيل: دعا أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ليعلم هل تستجاب دعوته، فقال الله له: أو لم تؤمن أنّي أجيب دعاءك، قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي أنّك تجيب دعائي. وقال الحسن: رأى جيفة نصفها في البرّ توزّعها السباع، ونصفها في البحر توزعها دواب البحر، فلمّا رأى تفرّقها أحبّ أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع، كما رأى كيفية التفريق»[٥]. فالطمأنينة التي كان يريدها سيّدنا إبراهيم طمأنينة المعاينة لكيفية الإحياء، وليست طمأنينة الاعتقاد بثبوت الإحياء، والطمأنينة هنا على معناها من سكون القلب، والإيمان كذلك على معناه من التصديق الناتج عن الإيمان، وهكذا يتضح المراد من معنى الإيمان ومعنى الطمأنينة في الآية الكريمة، أو بتقدير محذوف لكلٍّ منهما تبين به عن الأخرى، فكأنّ المعنى – والله أعلم – ألم تؤمن بقدرة الله على إحياء الموتى، قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانًا والمعلوم عيانًا. أو غير ذلك ممّا هو في هذا السبيل من تقدير محذوف كما ورد آنفًا في قول القرطبي.

فبهذه التأويلات التي رآها المفسّرون نرد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاعتراض على التوفيق بين الأصلين اللذين ذكرهما ابن فارس في دلالة الجذر (أ م ن)، وهما سكون القلب والتصديق، ونخلص إلى أنّ الأمن والأمنة والإيمان والأمانة، وكلّ ما يتفرّع من هذه المفردات، يمكن ردّه بلطف الصنعة إلى الطمأنينة وسكون القلب، وفيما يلي بيان ذلك وتفصيله:

دلالة الأمن على الطمأنينة

وهي أمّ الباب إن صحّت التسمية، فالأمن كما يقول الفيروزآبادي: «(الأمن): (والآمن) كصاحب، ضد الخوف، أمن كفرح أمنا وأمانا بفتحهما، وأمنا وأمنة محرّكتين، وإمنا بالكسر، فهو أمن وأمين كفرح وأمير»(٦). وفي لسان العرب: «أمنت فأنا أمن، وأمنت غيري من الأمن والأمان. والأمن: ضدّ الخوف، ورجل أمنة أيضًا إذا كان يطمئن إلى كلّ واحدٍ، ويثق بكلّ أحد... واستأمن إليه: دخل في أمانه، وقد أمنه وآمنه، ... والمأمن: موضعُ الأَمْن. والأَمِنُ: المستجيرُ ليَأْمَنَ على نفسه»(٧)، وإلى مثل ذلك تذهب المعاجم الحديثة، فنقرأ في المعجم الوسيط مثلاً: (أمِنَ) - أمْنًا، وأمانة، وأَمَنًا، وإِمْنًا، وأَمَنَةً: اطمأنّ وَلم يَخَفْ، فهو آمِنٌ، وأَمِنٌ، وأمِينٌ. يقال: لك الأَمانُ: أي قد آمنْتُك. والبلدُ: اطْمَأَنّ فيه أهلُه. و - الشرَّ، ومنه: سَلِم. وفلانًا على كذا: وثق به واطمأنّ إليه، أو جعله أمينًا عليه، وفي التنزيل العزيز: ﴿**هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ**﴾(٨).

وقد ذكر الأمن دالاًّ على الطّمأنينة، التي هي ضدّ الخوف، في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال ما منّ الله به على قريش من نعمة الأمن في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾(٩). ومنها قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾(١٠).

وقد جعل الله الأمن ثوابًا للمخلصين في إيمانهم للدلالة على مكانة الأمن والطمأنينة في حياة الناس، فقال تعالى: ﴿**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾(١١)، والأمن في الآية الكريمة ذُكِرَ معرَّفًا، «وفي التعريف من الدلالة على الكمال ما ليس في التنكير، جاء في (دلائل الإعجاز): «ويبين ذلك أن تقول: (لك في هذا غنًى) فتنكر إذا أردت أن تجعل ذلك من بعض ما يُستغنى به، فإن قلت: (لك فيه الغنى) كان الظاهر أنّك جمعت كلّ غناه به: أي كماله، وأل ههنا تفيد الاستغراق»(١٢)، وكذلك الأمن في الآية الكريمة يستغرق بتعريفه كلّ أنواعه وفروعه، من دون تخصيص بصفة، أو تحديد بنوع، فهو الأمن الكامل على كلّ شيء من كلّ شيء، وذلك أقصى ما يسعى إليه المرء؛ فجعله الله ثوابًا له في الآخرة، ودخل تحت لفظ الأمن جميع المحبوبات، وذلك أنّه نفى به أن يخافوا شيئًا من الفقر والموت وزوال النعمة وغير ذلك من أصناف المكاره.

واستقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الأمن أو أحد مشتقاته في كتاب الله يهدي إلى هذا المعنى العام من سكون القلب والطمأنينة، ولا سيّما الآيات التي ذُكِرَ فيها الخوف أو الفزع كقوله تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾(١٣)، وقوله تعالى: ﴿**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ**﴾(١٤).

ويُجتلى هذا المعنى العام من سكون القلب والطمأنينة في قوله تعالى: ﴿**سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ**﴾(١٥)، وقوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ**

﴿مَكْرَ اللَّهِ إِلاَ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون﴾(١٦)، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرّ أَوْ يُرسل عليكم حَاصِبًا ثمَّ لا تَجدُوا لكُم وَكيلاً﴾(١٧)، وقوله تعالى: ﴿أفمن يُلقى في النارِ خيرٌ أم مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(١٨)، فهذا بعض من الآيات الكثيرة التي ورد فيها ذكر الأمن أو أحد مشتقاته دالاً على معنى الطمأنينة وسكون القلب، وهو الأصل كما أسلفنا من قبل.

دلالة الأَمنة على الطمأنينة

تدلّ الأمنة في كتب اللغة على الأمن، وقد سبق قول الفيروزآبادي: «أمِنَ كفَرِحَ أَمْنًا وأمانًا بفَتْحِهما وأمنًا وأَمَنَةً محرَّكتين»(١٩)، فالأَمَنَة مثل الأمن، وقد بيّنا آنفًا أنَّ الأمن طمأنينة، وهذا يعني أنّ الأَمَنَة طمأنينة هي الأخرى، وقد صرّح بهذه الدّلالة بعض المعاجم الحديثة كالوسيط: «(أمِنَ) - أَمْنًا... وأَمَنَةً: اطمأنَّ وَلم يَخَفْ، فهو آمِنٌ»(٢٠).

وقد ورد ذكر الأَمَنة في القرآن الكريم مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عليكم من بعد الغَمّ أَمَنَةً نُعاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُم﴾(٢١)، وقد استشهد ابن منظور بالآية على معنى الأمن الذي نراه (طمأنينة) في قوله: «... الأمنة: الأمن؛ ومنه: أمنة نعاسًا... نصب أمنة؛ لأنه مفعولٌ له، وفي حديث نزول المسيح، على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام: (وتقع الأمنة في الأرض)؛ أي الأمن، يريد أنَّ الأرض تمتلىء بالأمن فلا يخاف أحدٌ من الناس والحيوان»(٢٢)،، ثمَّ إنَّ ذكر النعاس مع الأمنة يؤكّد ما فيها من معنى الطمأنينة: إذ لا يعرف النوم إلى الخائف سبيلا، أمّا الآمن المطمئن فسرعان ما يتطرّق النوم إلى عينيه، يقول القرطبي في تفسير الآية: «...﴿ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنةً نعاسًا...﴾ «الأمنة والأمن سواء. وقيل: الأمنة إنّما تكون مع أسباب الخوف، والأمن مع عدمه. وهي منصوبة بـ «أنزل»، و«نعاسًا» بدل منها. وقيل: نصب على المفعول له، كأنه قال: أنزل عليكم للأمنة نعاسًا... تفضّل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم في يوم أحد بالنعاس حتى نام أكثرهم، وإنّما ينعس من يأمن والخائف لا ينام. روى البخاري عن أنس: أنَّ أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»(٢٣).

الثانية: في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغشيكُمُ النُّعاس أَمَنَةً مِّنْهُ﴾(٢٤)، ودلالة الكلمة في الآيتين واحدة، والسياق نفسه وإن اختلفت المناسبة: إذ الآية الأولى نزلت في يوم أحد، وهذه نزلت في يوم بدر، يقول القرطبي في معنى الكلمة وتفسير الآية: «إذ يغشيكم النعاس أمنةً منه... يقال: أمن أمنة وأمنا وأمانًا كلها سواء. والنعاس حالة الآمن الذي لا يخاف. وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم. وعن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدرٍ غير المقداد على فرسٍ أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلاّ نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح، ذكره البيهقي. الماوردي: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد. الثاني: أن أمّنهم بزوال الرّعب من قلوبهم، كما يقال: الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر، وقيل: غشّاهم في حال التقاء الصفين»(٢٥).

وخلاصة الأمر أنَّ (الأَمَنَة) لا تكاد تختلف عن (الأَمْن) اللهمّ إلاّ فيما أشار إليه القرطبي آنفًا من أنَّ الأَمَنَة تكون مع أسباب الخوف، والأَمْن مع عدمه، وهما فيما سوى ذلك مستويان في الدلالة على المعنى الجامع بينهما، ألا وهو الطمأنينة وسكون القلب.

دلالة الأمانة على الطمأنينة

سبق أن ذكرنا قول ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة: «الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سكون القلب، ...»(٢٦)، فدلالة الأمانة على سكون القلب والطمأنينة أصلٌ عند ابن فارس، أمّا إطلاقها على ما يؤتمن عليه المرء فنراه من قبيل المجاز من طريقين:

أوّلهما : تسمية الشيء باسم الحالة (الطمأنينة وعدم الخوف) التي يكون عليها صاحبه، يقول السمين الحلبي: «وتجعل الأمانة اسم الحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن تارة، ولما يؤتمن عليه أخرى»(٢٧)، والحالة هنا طمأنينةٌ وسكونُ قلب، وقد أفضى أول المعنيين إلى الآخر بطريق المجاز؛ إذ سكون القلب إلى شخصٍ ما، والثقة به، تدفع المرء إلى إيداع ما هو غالٍ ونفيس عنده، فالأمانة في اللغة تكون حسّية من هذا القبيل، وتدلّ على ما يؤتَمن المرء عليه من ملل، أو متاع، أو غير ذلك، وتكون معنويّة، أي اسم مصدرٍ ينوب عن المصدر (ائتمان)، تقول: ائتمن ائتمانًا، وائتمن أمانة، وتدلّ على نقيض الخيانة، ويؤكّد بعض الفقهاء انتقال الدلالة من هذا الأصل إلى ذاك الفرع، ففي (أنيس الفقهاء): «الأمانة خلاف الخيانة، وهي مصدر أمن الرجل أمانة، فهو أمين إذا صار كذلك، هذا أصلها، ثمّ سُمّي ما تأتمن عليه صاحبك أمانة، ومنها قوله تعالى: ﴿**وتخونوا أماناتكم**﴾، والأمين من صفات الله تعالى يقال ائتمنه على كذا اتخذه أمينًا، ومنه الحديث: (المؤذّن مؤتمن): أي يأتمنه الناس على الأوقات التي يؤذن فيها، فيعملون على أذانه ما أمروا به من صلاةٍ وصوم وفطر»(٢٨)، وقد اجتمعت الدلالتان الحسيّة والمعنويّة في قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾(٢٩)، وجمعهما القرطبي بقوله: «الأمانة: مصدر سُمّي به الشيء الذي في الذّمة»(٣٠).

ثانيهما : العلاقة الاشتقاقية: فغير بعيد أن تكون الأمانة مصدرًا بمعنى المفعول: ولذلك يصحّ جمعها على (أمانات)، والعلاقات الاشتقاقية تعدّ من أبرز طرق التعبير المجازي في اللغة العربية.

وقد أطال ابن منظور في التّجوال بين معاني الجذر ودلالاته وشواهده، ولنا أن نجتزىء بعضًا ممّا ذكره في معاني الأمانة والأحاديث الشواهد عليها، من ذلك قوله: «... الأمان والأمانة بمعنى... وأَمِنْتُه على كذا وأْتَمَنْتُه بمعنًى، ... والأمانةُ والأَمَنَةُ: نقيضُ الخيانة، ... وفي الحديث: المَجالِسُ بالأَمانةِ؛ هذا نَدْبٌ إلى تركِ إعادة ما يَجْري في المجلس من قولٍ أو فعل، فكأَنَّ ذلك أَمانةٌ عند مَن سَمِعه أو رآه، والأَمانةُ تقع على الطّاعة والعبادة والوديعة والثّقةِ والأَمان، وقد جاء في كلٍّ منها حديث. وفي الحديث: الأَمانةُ غِنًى، أي سببُ الغنى... وفي حديث أَشراط الساعة: والأَمانةَ مَغْنَمًا، أي يرى مَن في يده أَمانةٌ أَنّ الخِيانة فيها غَنيمةٌ قد غَنِمها. وفي الحديث: الزَّرْعُ أَمانةٌ والتاجِرُ فاجرٌ؛ جعل الزرع أَمانَةً لسلامتِه من الآفات التي تقع في التّجارة من التَّزَيُّدِ في القول والحَلِف وغير ذلك... وفي الحديث عن ابن عمر قال: أَتى رجلٌ رسول الله ﷺ، قال: فمَن المؤمنُ؟ قال: من ائْتَمَنَهُ النّاسُ على أموالهم وأَنفسهم، ... وفي الحديث: أَسْتَوْدِعُ اللهَ دينَكَ وأَمانَتَك، أي أَهلك ومَنْ تُخَلِّفُه بعدك منهم، ومالَك الذي تُودِعُهُ وتسْتَحْفِظُهُ أَمِينَك ووكيلَك»(٣١).

ولا يخفى معنى الطمأنينة في كلّ ما سبق، فهي ماثلة من وراء حجاب في جميع الشواهد التي ذكرها ابن منظور، فالطّمأنينة إلى شخص تكمن وراء الوثوق به في الحديث فلا ينشره، وفي الوديعة فلا

يجحدها، وكذلك في باقي الدّلالات التي تشير إلى الحفظ والصّيانة.

وقد ورد لفظ الأمانة في القرآن الكريم في مواضع عدّة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿**فإنْ أمِنَ بعضُكُم بعضًا فليؤدِّ الذي اؤتُمِنَ أمانتَهُ**﴾[٣٢]، والمعنى عند الطبري أنَّ المدين إن كان أمينًا عند ربِّ المال فلم يرتهن منه في سفره رهنًا بدينه؛ لأمانته عنده على ماله وثقته، فليتقِ اللهَ في الذي عليه من دين صاحبه أن يجحده، أو يحاول الذهاب به، وليؤدِّ دينه الذي ائتمنه عليه إليه[٣٣]، وتستوقفنا عبارة الطبري (لأمانته عنده على ماله وثقته)؛ والأمانة والثقة لا تكونان إلاّ عن طمأنينة، ممّا يجعل ربّ المال يضع ماله عند المدين من غير رهن، وإذًا الطمأنينة هي الأساس.

وورد لفظ الأمانة أيضًا في قوله تعالى: ﴿**إنَّ اللهَ يأمُرُكُم أنْ تُؤدّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا**﴾[٣٤]، يقول ابن كثير: «يخبر تعالى أنّه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. وفي حديث.. أنَّ رسول الله ﷺ قال: (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك).. وهو يعمّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عزّ وجل على عباده... ومن حقوق العباد بعضهم على بعض»[٣٥].

ويقول القرطبي في الآية ذاتها: «هذه الآية من أمّهات الأحكام تضمّنت جميع الدين والشرع... والأظهر في الآية أنّها عامّة في جميع الناس: فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، وردّ الظلامات، والعدل في الحكومات، ... وتتناول من دونهم من النّاس في حفظ الودائع والتحرّز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلةٍ ما ونحوه، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى...»[٣٦].

وخلاصة الأمر الذي يعنينا أنَّ الأمانة وما يشتق منها من ألفاظ، وما تدلُّ عليه من معان، جميعها مردودٌ إلى المعنى الشامل وهو الطمأنينة وسكون القلب، فإذا سكن القلب واطمأنَّ إلى شخصٍ ما أنّه لا يخون عهدًا، ولا يفشي سرًّا، ولا يفرّط في الحقوق – كان ذلك مدعاةً للوثوق به في حفظ الودائع والأسرار، فمدار الأمانة مركوزٌ على الطمأنينة وسكون القلب.

دلالة الإيمان على الطمأنينة

الإيمانُ من الألفاظ التي أخذت بُعدًا إضافيًا في ظلّ الإسلام، فصار له معنيان، معنى لغوي وآخر اصطلاحي، شأنه في ذلك شأن باقي الألفاظ العربية الإسلامية، كالصلاة والزكاة والحجّ وغيرها، والأصل أن يتقدّم المعنى اللغوي على المعنى الاصطلاحي، وإن شاع الأخير بين النّاس وانتشر، ولكنّ الأمر الذي حصل – فيما نظن – أنَّ شيوع المعنى الاصطلاحي للإيمان غلب المعنى اللغوي حتى عند اللغويين أنفسهم، وفيما يلي بعض النصوص التي تثبت ذلك:

يقول الفيروزآبادي: «(والإيمان) الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»[٣٧]، ويقول ابن منظور: «حدّ الزجاج الإيمان فقال: الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة، ولما أتى به النبيﷺ، واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمنٌ مسلم غير مرتابٍ ولا شاك، وهو الذي يرى أنَّ أداء الفرائض واجبٌ عليه لا يدخله في ذلك ريب. وفي التنزيل العزيز: ﴿**وما أنت بمؤمنٍ لنا**﴾ ؛ أي بمصدّق. والإيمان التصديق»[٣٨]، فقد أقحم الزجاج – وهو اللغوي – ذكر الشريعة، والنبي ﷺ، وأداء الفرائض، في تعيين دلالة الإيمان، ثمَّ ذيّل الكلام بآية قرآنية، يرى المفسّرون أنّها تدل على معنى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التصديق، فقال به، وفي ذلك تقديم لرأي المفسّرين على رأي اللغويين، بل تسليم بآرائهم من دون تأمّلٍ في الدلالة اللغوية التي هي أسبق من الدلالة الشرعية للكلمة. وفي ختام هذا النصّ دليلٌ على ما يثبت استنباط المعنى اللغوي من المعنى الشرعي أو الاصطلاحي، وهو قوله بعد ذكر الآية: (أي بمصدق والإيمان التصديق)، فقد استنتج معنى التصديق من تأويل الآية، وليس في الأصل اللغوي.

وينقل ابن منظور عن الأزهري صاحب التهذيب قوله: «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أنّ الإيمان معناه التصديق. قال الله تعالى: ﴿**قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا**﴾[٣٩]؛ وهاهنا شيئان:

الأول: اتفاق أهل العلم من اللغويين، ثمّ تسويتهم بغيرهم، وما هكذا ينبغي أن يكون؛ فقد اتّفق اللغويون – إنْ صحّ ذلك – على معنى غير لغوي حتى تساووا مع غيرهم، يؤكّد هذا ابن منظور بقوله: «وقال الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم: ما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنّا صادقين، لم يختلف أهل التفسير أنّ معناه ما أنت بمصدّقٍ لنا»[٤٠]؛ فتساوى بذلك أهل اللغة، وأهل التفسير، بل غلب رأي المفسّرين رأي اللغويين، واللغة أصلٌ سابق، والتفسير فرعٌ لاحق يعتمد على اللغة ويبني عليها، ومهمة اللغوي أن يؤصّل اللفظ والمعنى، أمّا المفسّر فمهمته أن يبيّن المقصود من اللفظ في كتاب الله، استنادًا إلى ما يتفق عليه علماء اللغة، ولا اعتراض على ذاك الاتفاق بين اللغويين، ولا على هذه التسوية مع المفسّرين لو كان اللفظ يدل دلالة دقيقة على المعنى الذي ذهبوا إليه؛ لأنّنا نرى اللفظ يدل على الطمأنينة لا على التصديق كما سنبيّن.

الثاني: تقديم المعنى الشرعي (التصديق) على أنه هو المعنى اللغوي، ثمّ الاستدلال عليه بآية قرآنية، وممّا يؤكّد أنّه المعنى الشرعي، وليس اللغوي، تعقيبه على هذا المعنى بقوله: «وهذا موضعٌ يحتاج النّاس إلى تفهيمه، وأين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان، والإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي، وبه يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقادٌ وتصديقٌ بالقلب، فذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمنٌ مسلم، ...»[٤١]؛ فهذا التعقيب والتفريق بين المؤمن والمسلم إنّما هو كلامٌ في المصطلحات الشرعية، وليس في الدلالات اللغوية.

وتكاد تجمع كتب اللغة على أنّ كلمة (الإيمان) تدلُّ على التصديق دلالةً منفردة أوليّة، من دون ربطها برابطٍ لغويّ أو بلاغي، سابق أو لاحق، ففي الصحاح مثلاً: «...والإيمان: التصديق...»[٤٢]. وفي لسان العرب: «والإيمان: ضد الكفر، والإيمان: بمعنى التصديق، ضده التكذيب، يقال: آمن به قوم، وكذّب به قوم... وآمن بالشيء: صدق وأمن كذب من أخبره»[٤٣]، حتى الزمخشري ذهب إلى معنى التصديق فقال: «(وما أنت بمؤمنٍ لنا)؛ أي بمصدّق»[٤٤].

وقد سبق أن وفّقنا في مطلع حديثنا بين الأصلين اللذين ذكرهما ابن فارس في معجمه في دلالة الهمزة والميم والنون على سكون القلب والتصديق، حيث قلنا إنّ التصديق بالشيء لا يحصل إلاّ بسكون القلب إليه، والطمأنينة به أو عليه، ثمّ تتفرّع منها دلالاتٍ أخرى تحصل بحصول الأصل، ولنا في قول للخليل ما يدعم هذا التوفيق بين الأصلين، بل ينصّ على الطمأنينة صراحةً: «قال النضر: وقالوا للخليل: ما الإيمان؟ قال: الطمأنينة»[٤٥]. ويدعم هذا التوفيق أيضًا قول الفيروزآبادي: «(والإيمان): الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»[٤٦]، فتقديمه الثقة على

إظهار الخضوع وقبول الشريعة إنما هو تقديمٌ للمعنى اللغوي على المعنى الشرعي، ثمَّ إنَّ ابن منظور ينصّ على معنى الثقة في الكلمة، فيقول: «والإيمان: الثقة»(٤٧). والثقة تنجم عن الطمأنينة، فهذه أصل وتلك فرع.

ولعل فيما سبق من قول الخليل والفيروزآبادي وابن منظور خرق لما ذكره الأزهري من اتفاق أهل العلم من اللغويين على أنَّ الإيمان معناه التصديق.

والتأمّل في بعض الآيات التي ورد فيها ذكر الإيمان يهدي إلى أنّه لا تصديق بالشيء من غير اطمئنانٍ له، والمرء عادةً، حين يطمئن إلى محدثه ويأمنه من الكذب، يصدق ما يقوله ويؤمن به، فمن هنا كان الارتباط بين الاطمئنان والتصديق في دلالة الإيمان، وإلى مثل هذا ذهب السمين الحلبي في قوله تعالى: ﴿**وما أنت بمؤمنٍ لنا**﴾، فقال: «أي بمصدّق؛ لأنَّ الإيمان هو التصديق الذي معه أمن»(٤٨)؛ فثمّة تلازمٍ بين الإيمان والتصديق حتى يكاد يلتبس أحدهما بالآخر، وقد عبّر السمين الحلبي عن ذلك التلازم في موضعٍ آخر بقوله عن الإيمان: «ولكونه مضمّنًا للتصديق عدّي بالباء في (يؤمنون بالغيب)، أي يصدّقون بجميع ما أخبر به النبي ﷺ من أمور الآخرة الغائبة عنهم»(٤٩)، فحمله بذلك على التضمين، وهذا مذهبٌ حسن يحفظ للكلمة أصالتها في الدلالة على الطمأنينة، ودلالة أخرى فرعية هي التصديق.

ويؤكّد معنى الطمأنينة في لفظ الإيمان ارتباط الإيمان بالقلب ممّا ينتج عنه التصديق، وقد حرص القرآن الكريم على دقّة اللفظ، وتصويب الخطأ في قول الأعراب (آمنا) وما كانوا مؤمنين حقًّا، وبين مكان الإيمان في قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَاب آمَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا ولكنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُمْ**﴾(٥٠)، فالإسلام قول باللسان، أمّا الإيمان فاطمئنانُ القلب، وهو أصل، ثمَّ يعقبه العمل فيصدّق ذلك أو يكذّبه، فالتصديق فرعٌ ينتج عن الإيمان، ومظهرٌ يدلُّ عليه، شاهدنا في ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا المؤمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وأنفُسِهِم في سَبِيلِ اللهِ أولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾(٥١): فالإيمان كما تبيّن الآية اعتقادٌ بالله ورسوله من غير ريبة: أي اطمئنانٌ كامل لهذه العقيدة، وهذا محلّه القلب، ثم عملٌ صالح، وهو الجهاد بالمال والنفس يكون برهانًا وتصديقًا على تلك الطمأنينة القلبية.

ولعلّ في ارتباط الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم ما يؤكّد أنَّ الإيمان طمأنينة القلب، والعمل الصالح تصديق الجوارح، كقوله تعالى: ﴿**إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أولئِكَ هُم خَيْرُ البَرِيَّةِ**﴾(٥٢)، والإيمان والعمل: أي الطمأنينة والتصديق متلازمان لا يغادر أحدهما الآخر؛ ممّا يؤدّي إلى اللبس في التفريق بينهما، ونظنّ أنَّ مثل هذا اللبس قد حصل لدى بعض اللغويين؛ فلم يميّزوا بين ما هو معنوي وما هو مادي، كما في قول الفيروزآبادي: «(والإيمان): الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»(٥٣)؛ إذ الثقة محلّها القلب، وإظهار الخضوع والقبول يكون بالجوارح، وكذلك الزجاج حين قال: «الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة، ولما أتى به النبي، واعتقاده وتصديقه بالقلب»(٥٤). فخلط بين العقيدة والطمأنينة بها من جهة، وهذه محلّها القلب، وبين إظهار الخضوع، وهذا عمل، ومحلّه الجوارح من جهةٍ أخرى، فجعلهما الزجاج شيئًا واحدًا هو الإيمان، وهما في الحقيقة مختلفان.

أمّا تأويل قوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿**وَمَا أنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَو كُنَّا صَادِقِينَ**﴾(٥٥)، فنذهب إلى قريب ممّا ذكره السمين الحلبي في قوله:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«أي بمصدق؛ لأنَّ الإيمان هو التصديق الذي معه أمن»[٥٦]، والأمن طمأنينة؛ أي: وما أنت بمطمئنٍ لنا فتصدقنا ولو كنا صادقين، وفي قولهم: ولو كنّا صادقين ما يشعر بكذبهم، وينبىء بحقيقة أمرهم مصداقًا للمثل القائل: يكاد المريب يقول خذوني، فكأنهم يقولون: وما أنت بمطمئنٍ لنا فتصدقنا ولو كنا صادقين، فكيف يكون ذلك ونحن في الحقيقة كاذبون؟

أمّا (المؤمن) في صفة الله تعالى فتعود إلى معنى الأمن، يقول الأزهري: «قيل: المؤمن في صفة الله الذي آمن الخلق من ظلمه، وقيل: المؤمن الذي آمن أولياؤه عذابه»[٥٧].

والمراد من وراء ذلك كلّه أنَّ كلمة (الإيمان) تدلّ في اللغة أصلاً على طمأنينة القلب، ثمَّ تنتج عنها الثقة والتصديق وغير ذلك.

وخلاصة الأمر أنَّ المفردات المشتقة من الجذر (أ م ن)، كالأمن والأمنة والأمانة والإيمان وما يتفرّع عن هذه المفردات من صيغٍ مختلفة، يمكن ردّها جميعًا بشيءٍ من التأنّي والتأمّل إلى أصل لغوي واحد، وهو الطمأنينة وسكون القلب، وما نظنّ هذا الجذر إلاّ مثالاً يمكن احتذاؤه في جذورٍ لغوية أخرى، تمهيدًا للتوصّل إلى نظرةٍ شمولية للمعجم العربي، تكون أعمق غورًا في تأصيل ظاهرة الاشتقاق في لغة القرآن الكريم. ●

●●●

الحواشي

١ – معجم مقاييس اللغة: ٣/١.

٢ – معجم مقاييس اللغة: (أمن) ١٣٣/١.

٣ – سورة البقرة: ٢٦٠.

٤ – الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال: ١/ ٣٩١ – ٣٩٢.

٥ – تفسير القرطبي: مج٢/ ١٩٥/٣.

٦ – القاموس المحيط: (أمن).

٧ – لسان العرب: (أمن).

٨ – المعجم الوسيط: (أمن).

٩ – سورة قريش: ٤.

١٠ – سورة النساء: ٨٣.

١١ – سورة الأنعام: ٨١ – ٨٢.

١٢ – معاني النحو: ١١٧/١.

١٣ – سورة النمل: ٨٩.

١٤ – سورة القصص: ٣١.

١٥ – سورة النساء: ٩١.

١٦ – سورة الأعراف: ٩٧ – ٩٩.

١٧ – سورة الإسراء: ٦٨.

١٨ – سورة فصلت: ٤٠.

١٩ – القاموس المحيط: (أمن)، وانظر كذلك الصحاح، ولسان العرب.

٢٠ – المعجم الوسيط: (أمن).

٢١ – سورة آل عمران: ١٥٤.

٢٢ – لسان العرب: (أمن).

٢٣ – تفسير القرطبي: مج٢/ ١٥٦/٤.

٢٤ – سورة الأنفال: ١١.

٢٥ – تفسير القرطبي: مج٤/ ٧/ ٢٣٦ – ٢٣٧.

٢٦ – معجم مقاييس اللغة: (أمن): ١٣٣/١.

٢٧ – عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١٢٣/١.

٢٨ – أنيس الفقهاء: ٢٤٩.

٢٩ – سورة البقرة: ٢٨٣.

٣٠ – تفسير القرطبي: مج٢/ ٢٦٨/٣.

٣١ – لسان العرب: (أمن).

٣٢ – سورة البقرة: ٢٨٣.

٣٣ – انظر تفسير الطبري: مج٣/ ١٩٠.

٣٤ – سورة النساء: ٥٨.

٣٥ – تفسير ابن كثير: مج١/ ٦٢٩.

٣٦ – تفسير القرطبي: مج٣/ ٥/ ١٦٥ – ١٦٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣٧ – القاموس المحيط: (أمن).

٣٨ – لسان العرب: (أمن).

٣٩ – الموضع السابق.

٤٠ – الموضع السابق.

٤١ – الموضع السابق.

٤٢ – الصحاح: (أمن).

٤٣ – لسان العرب: (أمن).

٤٤ – أساس البلاغة: (أمن).

٤٥ – لسان العرب: (أمن).

٤٦ – القاموس المحيط (أمن).

٤٧ – لسان العرب: (أمن).

٤٨ – عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١/١٣٣.

٤٩ – المرجع السابق نفسه: ١/١٢٤.

٥٠ – سورة الحجرات: ١٤.

٥١ – سورة الحجرات: ١٥.

٥٢ – سورة البيّنة: ٧.

٥٣ – القاموس المحيط: (أمن).

٥٤ – لسان العرب: (أمن).

٥٥ – سورة يوسف: ١٧.

٥٦ – عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ١/١٣٣.

٥٧ – لسان العرب: (أمن)، وانظر الصحاح، ومقاييس اللغة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- **أساس البلاغة**، للزمخشري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- **الإنصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال**، لأحمد بن محمد بن المنير الإسكندري، دار الفكر (مطبوع مع الكشاف)، د.ت.
- **أنيس الفقهاء**، لقاسم بن عبدالله القونوي، تح. د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي، ط١، دار الوفاء، جدّة، ١٤٠٦هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٤م.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- **الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي**، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- **الصحاح**، للجوهري، تح. أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.
- **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، للسمين الحلبي، تح. محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.
- **معاني النحو**، للدكتور فاضل صالح السامرائي، مطبعة التعليم العالي، الموصل، ١٩٨٩م.
- **معجم مقاييس اللغة**، لابن فارس، تح. عبد السلام محمد هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، ط٢، دار الدعوة، استانبول، ١٩٧٢م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com